عام (٢٠٠٤) .. ولم يقع التغيير

نصير غدير

لقد وقع التغيير الذي نريده لكن هل كان هذا التغيير بالحدود التي نحتاجه فيها؟ قبل عام وأكثر قليلاً لم نكن نعرف إجابة واضحة لهذا السؤال ، فالأحداث التي عجل بها هذا التغيير لم تمنحنا برهة للتوقف والتأمل في مايجري ، وحتى لاأبقى في المجال العام لحدود التغيير الذي وقع ، سأحدد كلامي في مايخص واقع الثقافة العراقية وأزمتها ، إذن لابد من ان اعود لأسال هل وقع التغيير بالحدود التي نحتاجها في الثقافة العراقية ؟! واذا كان سؤالي الاول يمتلك مشروعيته من خلال تأكد إزالة النظام الديكتاتوري التمييزي فإن سؤالي الثاني (عن حدود التغيير في الثقافة) لايمك إثبات صلاحيته الا اذا تأكدت إزالة النظم الثقافية الجاثمة على سيرورات الفعل الثقافي قبل انهيار النظام الديكتاتوري ،

وبهذا يجب ان يكون السؤال هل أزيلت هذه النظم؟ وبقول اكثر تشخيصاً هل وقع التغيير في المجال الثقافي؟.. في المرة التي تلت التغيير السياسي وحتى بداية عام ٢٠٠٤ لم يكن بأمكاننا تمييز ذلك او الاجابة بنعم او لا، بل لم نكن نتصور أننا سنضطر لطرح أسئلة كهذه، ذلك ان معظمنا دهش لسرعة انهيار هذه الالة العسكريتارية التي خيمت على قلوب العراقيين وعقولهم، وجعلت من حياتهم كابوساً بدا وكأنه أبدي مستحيل الزوال، هذا من جهة ومن جهة اخرى كنا بحاجة لانتظار استعادة الحكومة لكيان الدولة وبناها ومؤسساتها، وبضمن هذا الكيان المؤسسات والممتلكات الثقافية، التي في معظمها ممتلكات للمثقف العراقي كدور النشر والعرض المسرحي والفني واتحادات ونقابات الأدباء والفنانين والمؤسسات الثقافية كدار الشؤون الثقافية ودار ثقافة الطفل والمتاحف والملتقيات والمنتديات الأدبية والفنية، وعلى صعيد آخر بدأت بوادر التغيير بممارسة حرية التعبير عن الراى يزيد على خمسة أشهر اكثر من مئتين وخمسين صحيفة بحسب احصاء قام به أحد الصحفيين في جريدة الساعة آنئذ، مما جعلنا نترقب الحال التي ستؤول اليه الثقافة العراقية تحت هذا الانفتاح، الذي تتضح فيه معالم الفوضى المبطنة الرديئة، فضلاً عن عدد من الصحف التي لاتلقى شعبية ولاصدى في الشارع العراقي على الصعيدين العام والثقافي، ولادعوى لاستمرارها الا إصرار الاحزاب الراعية لها بوصفها صحفاً ناطقة باسماء تلك الأحزاب او الحركات ولا اعتراض على وجودها مادمنا مؤمنين بحرية الرأي والرأي الاخر.

هذه وغيرها من الأسباب لم تدعنا نسأل أنفسنا هل حصل التغيير فعلاً في واقع المجتمع الثقافي، وفي فاعلياته؟ وعلى الرغم من أننا مازلنا نخوض مايسمى بمرحلة التغيير على الصعيد الاجتماعي والسياسي وعلى صعيد توازن القوى بين الشعب والسلطة، فان نظرة تفحصية واسترجاعية لعام ٢٠٠٤ ولمجمل ما حصل فيه من فعل ثقافي يمكن ان تجد مشروعيتها من الجانب الأكاديمي على وفق المحدد المعياري الزمني، فلقد استعادت مؤسساتنا الثقافية في الاقل المقومات الاساسية، كما توقفت قرابة الثمانين بالمئة من مجمل المئتين وخمسين صحيفة وفي معظمها صحف غير ذات احتراف او مهنية، وتميزت لدينا أكثر من صحيفة في المستوى العام واستعادت بعض المطبوعات الثقافية نشاطها بالاضافة الى استحداث اكثر من مطبوع ثقافي، فهل أسهم هذا في تنشيط الفعل الثقافي، ومن ثم تغيير الواقع الثقافي؟ فإذا كانت الاجابة (نعم)، فهو المطلوب، كما يقول البرهانيون، واذا كانت (لا)، فما الذي حدث؟

الذي حدث -من وجهة نظر أحداث هذه السنة -هو وهم بالتغيير سببه تغيير بالظاهر، بمعنى ان ماحدث هو لعبة تبادل الكراسي مع بقاء الفهم نفسه للفعل الثقافي، ولايمكن لي ان اثبت وجهة، النظر هذه الا بالمرور على أهم مفاصل الثقافة العراقية وتكويناتها وبنى مجتمعاتها ومؤسساتها.

ولأبدأ بوزارة الثقافة، فلقد كانت هذه الوزارة محكومة ولعقود ثلاثة بوزراء ووكلاء وزارات ومستشارين همهم تسيير الفعل الثقافي بالحد الأدنى، وإذا تطلب الامر جهداً منهم فلتدجين الثقافة والمثقفين وربطها في حظيرة حيوانات الديكتاتور، عبر الترهيب والترغيب والقمع والتشريد والقتل والتعذيب، فاستبدلتهم الحالة الجديدة بوزير ومستشارين لايمكن لواحد منا ان يشك بنزاهتهم وحسن نواياهم ورغبتهم في خدمة الواقع الثقافي، لكن حسن النوايا وحده لايفيد، وقبل ان اشرع في نقد عمل الوزارة، لابد ان انتبه الى ان القطاعات التفنية كهيئات الاثار والتراث، والسياحة، هي أشبه بدوائر ذات سياقات روتينية لايمكن ان يتدخل في شؤونها سوى ذوي الاختصاص والخبرة كل في مجاله، ومن ثم فان جهود الوزارة في هذه القطاعات محفوظة، وهي بهذا لاتختلف عن وزارات آخرى كالزراعة او المواصلات.. الا ان خصوصية الوزارة تكمن في كونها الراعية الاساسية للحركة الفكرية والثقافية، التي تتوزع على المفاصل الادبية والفنية، كالمسرح والسينما والتشكيل والموسيقى ... إلخ، وإذا تذكرنا ان الذي قدم لهذا القطاع هو الخلاص من طغيان الفكر العنفي وجبروت الدكتاتور قلنا ان هذا هو من معطيات التغيير السياسي، فهذا الفكر كان مقروناً بالديكتاتور وزال بزواله، فمادور الوزارة حتى الآن هذا السؤال هو الذي جعلني أقدم ان حسن النوايا لايكفي، ذلك ان من يجب ان يكون على رأس هذه المؤسسة عليه ان يعرف طبيعة الثقافة العراقية وكياناتها وبناها مجتمعات وأفراداً وفاعليات، وعليه ان يعرف القوى المحركة والمرجعيات التي تعمل على تكوين الظاهرة الثقافية، ثم عليه ان يعرف صراعاتها الداخلية والخارجية، وتوزيعاتها الطبقية، وأقصد الطبقية في داخل الكيان الثقافي، لا الطبقات الاجتماعية، بل على غرارها، وإذا ماعرف هؤلاء القائمون في الوزارة هذه الامور، عليهم بعدئذ ان يملكوا القدرة على التخطيط لاحداث مقومات تنمية ثقافية ينهض بها المثقف العراقي لصناعة تحول ثقافي يمكن ان يكون تحولاً طليعياً في المنطقة وربما في العالم، نعم لقد دعمت الوزارة المهرجانات مثل مهرجان مربد البصرة ومهرجان الحبوبي ومهرجانات كردستان ومهرجان المتنبي، وكذلك المؤتمرات لكنها مهرجانات خلطت الحابل بالنابل ولم تميز بين الغث والسمين، واجتمع فيها أدعياء الادب الى الراكزين فيه، دون ان نرى تقدماً في المستوى النوعي، ولاأبالغ ان قلت أنه تدهور فيه، وانا اقول كلامي هذا مع علمي، انه قد يفهم في انه دعم لنشاطات النظام الديكتاتوري البائد، لكن أمثال هذه المهرجانات كانت تقام بأسماء اخرى في عهد البعث، والفارق فقط في تمجيد (فكر القائد الضرورة)، أما الفارق النوعي فلا.

ونعم ان المنشورات الثقافية قد استعادت نشاطها بدعم من الوزارة، لكننا لو أخذناها، وقارناها بما كانت عليه إبان النظام السابق لوجدناها على الحال نفسها، بل ان معظم تلك المجلات حين أنشئت كانت تزخر بالنوع عالي المستوى وأحياناً الطليعي اذا استثنينا الافتتاحيات التمجيدية الوجوبية، ومقالات واجبة آخرى تفرضها مناسبات البعث وقائده الضرورة، وهذا قبل ان يتفرغ الديكتاتور لهذه المجلات والنشرات ويحولها الى أبواق تلهج بمجده، ان لهج الابواق، وأمر المهرجانات والمؤتمرات والمنشورات ينسحب على المعارض الفنية ومهرجانات العروض المسرحية، فضلاً عن اغفال الوزارة مسألة المسابقات الابداعية فيما عدا مسابقة للفن التشكيلي أقامتها خلال العام المنصرم، ولو عددنا النشاطات المحذوفة من قائمة الوزارة لعرفنا ان المسألة مسألة نقصان خبرة.

وإذا انتلقت الى مؤسسات المجتمع المدني الثقافية كاتحاد الأدباء ونقابة الفنانين ونقابات واتحادات تخصصية آخرى، انسحب أمر الوزارة عليها بفوارق نسبية طفيفة، فبعد هروب جلاوزة صدام من هذه المؤسسات حل محلهم بطريقة الانتخابات أناس في الغالب ذوو ماض شريف مع بقاء بعض من كان متورطاً مع ثقافة التهليل والتطبيل، فلأمثالهم شعبية بسبب كثرة من هلل وطبل داخل الأوساط الثقافية، وماعليك الا أن تبحث في ماتبقى من أرشيف النظام السابق لتجد الاسماء والى جانبها الافعال، وعلى أية حال جاءت الهيئات الادارية والمركزية لهذه النقابات والاتحادات، وبرغم وجود نسبة ذات ماض نزيه، الا ان الماضي النزيه هذا ارتبط بالموقف السياسي العام، فلربما لم يدعمه الموقف الابداعي او السلوكي المناسب في بعض الأحيان، ولم نر من جديد على أيدي هذه النقابات الا اللهم كثرة تدبير الايفادات والرحلات الخارجية لذواتهم، وبضعة جلسات وفعاليات عديمة القيمة، كان في العادة عدد الحضور يقل عن سابقاته إبان النظام المباد، وكان لهذه الاتحادات دور الشريك في إقامة المهرجانات التي ذكرناها عند حديثنا عن الوزارة، فلاحاجة للعودة اليها بالتفصيل.

وإذا عدنا للملتقيات والمنتديات الثقافية فعلى الرغم من تعددها نستطيع ان نرصد تشتتها وغياب الأهداف والمبادئ التي تقوم عليها، ولاأثر لنشاطها يذكر سوى إقامة جلسات المناقشة والقراءة، التي كثيراً لاترقى الى حد ان تعزى الى حركة الثقافة، وفي أحيان معينة وجدنا أناساً ينشئون هذه الملتقيات لم نعرف عنهم انتماءهم لهذا الوسط، ولعمري ان الغاية من انشائهم هذه الملتقيات التي تنوء الثقافة العراقية بكاهلها هي رغبة هؤلاء الأشخاص بالحصول على مكاسب اجتماعية أو جمع قائمة نشاطات وفعاليات لاستجداء منظمات الدعم الانسانية والثقافية بالحصول على منح مجزية، من هذا كله يتبين لنا أن أزمة الثقافة العراقية هي أزمة مثقف، وليست أزمة ثقافة، وبإمكاني ان أثبت ذلك أيضاً بفحص طبيعة المثقف العراقي، فبعد ان كنا نسخر من قسمة الثقافة العراقية الى ثقافة داخل وخارج وجدنا أنفسنا ملزمين بهذه القسمة على أنها أمر واقع.

وسأبدأ بمثقفي الخارج، فبعد ان كنا نقرأ لهم خلسة بكاءهم وتباكيهم على الوطن، وقسوة المنافي وألم الغربة كنا نبكي من أجلهم ونأسى عليهم، وكنت أتصور انهم سيقتحمون البلاد أفواجاً بمجرد سقوط الطاغية، ونحن نعلم أن المثقفين خارج البلاد يعدون بالمئات، فما الذي حدث؟ الذي حدث ان نسبة لاتزيد عن عشرة بالمئة منهم جاؤوا بزيارات قصيرة للقاء بعوائلهم وعادوا هاربين، ومن بقى منهم فبطلب من حزبه الذي عزله في مكاتبه، وعدنا نسمع به ولانراه، كما كان في الخارج، أو بقي ليتسلم منصباً إدارياً على احدى المؤسسات، بعد ان قضى سنوات غربته بالتمرن على الشوكة والسكين لاقتسام كعكعة العراق، لقد آثر مثقفو الخارج كسل الغربة، واعتياشهم على منح المعونات الاجتماعية التي تتكفل بها منافيهم على فك ربقة العراق الثقافية، بدعوى عدم استقرار البلاد أمنياً، ولو أحصينا عدد مثقفينا في الخارج، نسبة الى ماصدر لهم من كتب وأعمال في هذا العام لتبين لنا ان نسبة النشاط لايتجاوز اثنين بالمئة في أفضل الاحوال، ناهيك عمن تمترس بمنفاه وأصبح يلقي بجام حقده وطائفيته على العراق ممجداً أعداء العراق والانسانية مهدياً القصائد والألحان لأبطال العنف والدموية.

ولاينصب اللوم على هؤلاء ففي الداخل هرب الجلاوزة الكبار كزعيمهم ولكن الى خارج البلاد، ومن هناك بدؤوا يحوكون دسائسهم للبلد ولثقافته، أما الصغار فمنهم من بدل جلده وبدأ يختلق له تاريخاً وبطولات، وكأننا لم نكن هناك نسمع ونرى، ومنهم من اعتمد على علاقاته ليحتمي بظل صحيفة او مؤسسة، ولم يعد عليه شيء مما بدا، والمشكل هاهنا في الفهم الخاطئ لمعنى التسامح لدى العراقيين، ولاأريد ان اتوقف هاهنا فللثقافة مشكلة آخرى بمثقفها، فبعد هروب هؤلاء وتخلي هؤلاء سارع الآخرون بحثاً عن الحصص الفارغة، ومنهم من وجد ضالته، ومنهم من عاد خالي الوفاض، وهو يقول: إن من لم يجد الانتفاع في ذلك الوقت لايجيده الان، وبحث البقية عن وظائف صغيرة في الصحف والمحطات الاذاعية والتلفزيونية، ومن كان طموحه اكبر ، بحث في احدى الفضائيات العربية والاجنبية وكذلك الصحف العربية والاجنبية، حتى اصبحنا نسأل بعضنا اين تعمل؟ بدلاً من ماذا تقرأ او تكتب هذه الايام؟وكأن الخلاص من نظام الديكتاتور ومن رعبه، لن يتحقق عندهم الابمفهومه المادي واصبح الفنانون والادباء مراسلو احداث سياسية، ونشرات اقتصادية وكتاب تحقيقات عن سعر الطماطم والبطاطس، وانتشار الموبايل بين الطالبات المراهقات، وبدلاً من ان اسمع الروائي يتحدث عن روايته الجديدة بدأت اسمعه يتكلم عن احتياجات (صفحة منوعات) ليوم الثلاثاء المقبل، وبدلاً من ان اجلس مع صديقي جلسة حوار نشرب فيها الشاي، بدأت اتهرب منه ومن كاميرته ومسجلته وهو يحاول ان يأخذ مني حديثاً عن رأيي في عدم التزام الطلبة بالزي الجامعي.

لقد أحدث هذا فراغاً ومشكلة أدهى وأمر، فلقد اندفع الموهومون وعديمو الموهبة ليتصدوا لمفاصل الثقافة، وبغياب الرقيب السياسي الذي كنا نبغضه ويقلقنا، غاب الرقيب التقويمي التقني النقدي الذي هو الحارس الوحيد لكل ثقافة، فأصبحنا نرى اسماء اشخاص لايعرفون من ألف باء الابداع جيمها، وهم يتصدرون الصفحات والمهرجانات والمحافل الثقافية.. نعم انها أزمة مثقف ورقيب وأزمة مصالحة قائمة على مفهوم الاعتراف الكنسي والتوبة الاسلامية.

لقد أزيل الصنم الذي بدا خالداً وأبدياً، ولم تسقط أصنام فهمنا لابداعنا فلماذا أكتب قصيدة النثر وبالنفس الذي جرني، هل سألنا أنفسنا إذا ماتغيرت انماطنا الابداعية بالتغير العراقي؟!

عام آخر على الثقافة العراقية

كتب : المحرر الثقافي

ثقافة الماضي

المتابع للواقع الثقافي العراقي طيلة العام المنصرم، اعتمادا على قراءة تقوم على النقد والمراجعة لصياغة محددات تقدم صورة عن هذه الثقافة ودورها، سيتوصل الى حقائق عدة تتعلق بمضمون هذه الثقافة ، هذه الحقائق التي تشكل امتدادا لمشكلات عانتها الثقافة العراقية زمنا طويلا ، تتركز في العجز الثقافي عن توفير العرض الثقافي لطاقات المثقفين العراقيين وصولا الى قناعة وحاجة هذه الثقافة الى بناء تحتاني تقوم عليه بفهم مرور هذه الثقافة في مرحلة جديدة، يمكن ان يقال انها مرحلة حرية التبست مع سياقات اجتماعية ونفسية ، فضلاعن غموض المستقبل العراقي عموما ، فصارت هذه الثقافة في مواجهة ظرف معقد اولى مقترباته وهي أن الحرية تضيع بالفوضى ، التي دفعت بعضهم إلى أن ينافس بعضهم الآخر كلما ابتعد النشاط الثقافي عن ستراتيجية العمل . اذ ما زالت النظرة التعبوية تحدد معالم الكثير من الافعال الثقافية، فضلا عن حالة الخمول التي تسيطر على حياتنا الثقافية، وغياب ستراتيجية تكشف عن فعل اعادة البناء الثقافي، سواء على مستوى دور المؤسسات الحكومية الثقافية ، أو في الجسد الثقافي الذي لم تعرف كياناته الى الان ، ولم يستقر حيزه المادي والفكري، فثمة منتديات ومجموعات، ومنابر، ودوائر وغيرها من التجمعات الوهمية. تدعي ممارسة نشاطات ادبية ضيقة تلخص به مجمل العمل الثقافي ،لكن التطورات والنتائج الثقافية كانت نسبية ولم تصبح قادرة على خلق النموذج الثقافي الضروري لمتطلبات التغيير.

ولا يتوفر للمتابع معرفة منهجية فكرية واضحة لنشاط ثقافي لمؤسسات الدولة الثقافية ، حتى غدا تصنيف اي فعل او نشاط ثقافي لهذه المؤسسات كأنه تنفيذ حلقات روتينية شهرية او اسبوعية، من دون الاعتماد على مواجهة مشكلات واقعية تأخذ بنظر الاعتبار الأسس التي تؤكد هوية النشاط الثقافي ولمن يوجه، ولولا نشاط مؤسسات ثقافية مستقلة . وهي محدودة. لكنها عبرت في حركتها اليومية عن خطط مستقبلية تعنى بالاسهام في اعادة بناء الثقافة العراقية لبدا المشهد الثقافي العراقي غائبا تماما كاشفا عن عجز اصاب مفاصل الحياة الثقافية تماما .هذا لو لم نغفل الجهد الإبداعي الفردي المقيد بسلاسل الجوع والبرد والخوف من الاغتيال ، والانفلات الأمني وعدم الاستقرار وبقاء جانب من الفعاليات الثقافية يضيع جهدها هنا وهناك في وقت يقاد الإنسان العراقي عبر أساليب الرعب والجهل الى مواجهة خيارات صعبة. بهذا الواقع ظلت المشكلات القديمة عالقة لم تجد لها حلا وإلى جانبها نشأت مشكلات جديدة .

وهكذا يبدو المشهد تتمة لتصور سابق هيمن على الحياة الثقافية في العراق، وهو تصور قام على افكار غير واقعية ربطت الثقافة بالدولة قسرا ، او صادرت الفعل الثقافي لمصلحة الدولة وكأن هذه الفكرة صارت مقدسة تمس الهوية ووحدة الوعي العام، لتتراجع هذه الثقافة وتتخبط ثمنا لافكار تنادي بمركزية الفعل الثقافي ، فهناك مؤسسة واحدة دوما، ووزارة واحدة ، واتحاد ادباء واحد، وغيرها من الواحديات التي لاتزال تفعل فعلها في التفكير والتخطيط والنظر الى الثقافة .

لنجد انفسنا في مواجهة حقيقة ملحة لا فرار من الايمان بها وهي لن تتحرر لا الثقافة ولا غيرها ما لم تتخلص من اوهام ارتفعت الى حد المقدس، هذه الحالة من السطحية في الطرح والاتكاء على ما هو متوفر خلف مشهدا ثقافيا عبر عن اللاجدوى واللافاعلية لعدد من المؤسسات الثقافية الحكومية، ويتبع هذا التصور عدد من التجمعات الثقافية الاخرى، لاسباب معروفة للمتابع ، فالمشكلات محددة سلفا لكننا بصدد الاقتراب من الحلول . وكي لا تتوقف حركة الثقافة العراقية في طقس الفترة الرمادية التي تسود الان في ضباب لا أفق له، وكي لا يستمر نار العنف والقتل و الخطف والإرهاب ولكي لا يجلس مثقفون عرب على جحورهم يهزون رؤوسهم فرحا بأعمال الموت والإرهاب لابد للثقافة العراقية من ان تعلن عن صوتها الذي غاب زمنا طويلا ، وتقول كلمتها وتقدم اضحياتها ايضا ماديا وفكريا.

أسئلة التغيير واعادة البناء

كيف يمكن اعادة بناء الثقافة العراقية؟ سؤال سيطر على الحوار منذ انهيار الوضع السابق، والحقت به اسئلة اخرى تندرج في السياق ذاته من مثل : كيف يمكن النهوض بالواقع الثقافي لتمارس الثقافة دورها الابداعي ، لتكون في خط الفعل السياسي الضاغط لدينا في الحادث العراقي الراهن بمتغيراته الاجتماعية والسياسية ؟

لقد قُدمت الكثير من المقترحات والخطط الانية، لكن الاسئلة بمجملها ارتبطت بالفهم السائد للتغيير، واهملت حقيقة ان تغيير المكونات الاساسية للثقافة يتداخل مع مفهوم التغيير بالمعنى العام، وبدا من الصعب الاندراج في سياق التغيير بعيداً عما يحصل على ارض الواقع من كوارث وابعاد وموت وقسر وارهاب، وتمت اشاعة فكرة ان هناك نخبة ثقافية صامتة، جرى الحديث عن دورها في هذا التغيير، واهمية اشراكها في اعادة بناء مفاصل الحياة الثقافية .

وبقي الإصلاح الثقافي الذي حلمنا به صوتا هامسا خلال عام كامل في الاجتماعات والمؤتمرات داخل قاعات الوزارة أو اتحاد الادباء، او بقية التجمعات والمنتديات التي تناسلت وتكاثرت ، وفي صحف تحاذر مقالاتها من مس المشكلة .

مضى عام آخر وبقيت النظرة هي النظرة، وطريقة التفكير ذاتها تشكل ضغطا على صدر هذه الثقافة ، وخطوات بطيئة للدولة تشكو الإفلاس في ميزانية الثقافة حتى صار الانسان العادي مثل المثقف يقف متفرجا على التصورات غير المقبولة لبقاء البنية الظاهرة للثقافة العراقية بلا حراك حقيقي وبلا تجديد في بنيتها . وكأنه صار هدف الثقافة العراقية هو أن تعود الى فعاليات وزارات الثقافة ومؤسساتها الموروثة ، او نشاطات اتحاد الادباء لإعادة تسالي العمل الثقافي للوضع الثقافي البائد في إصدار بعض الكتب والمجلات واقامة بعض المهرجانات والمعارض.

والحال هذه كانت أغلب الآراء تتوقف عند الكلام عن نشاطات تخضع لضغوطات الراهن والاكتفاء بحصول انتخابات هنا ، واعادة مفصولين سياسيين هناك، واصدار مجلة متواضعة في هذه الدائرة الثقافية ، او اقامة مهرجانات شكلية وغيرها في تلك المدينة ، وهي نشاطات كشفت عن غياب ستراتيجية واضحة تواجه المشكلات التي تراكمت طيلة سنوات الماضي يضاف اليها تداعيات التغيير السياسي الذي لف الحياة العراقية قاطبة.

غياب المنهج واضح في النشاط الثقافي العراقي

المثقف يقف متفرجا على ما يحدث

فمازال المثقف العراقي يحتكم لتصورات مستقرة درج على التعامل معها وهو يخطط وينتج ويبدع، فتحرير الثقافة مرتبط بتشكيل سلوك المجتمع ، وهي المدخل الامثل لاحداث تغييرات في السلوك السياسي والاجتماعي، فكما هيمنت قيم غير ثقافية ابان الوضع السابق على كل مفاصل الحياة الثقافية، يرى المتابع للوضع الحالي سيطرة قيم اخرى تشكل صدى وامتدادا لطريقة التفكير السابقة، فبعض الاوساط الثقافية تسيطر عليها جماعات تحدد مجال تداول الافكار المسموح بتداولها، ووصل الحال الى ان عددا كبيراً من الجامعات تستعين بطلبتها وملاكها للترويج لنمط ثقافي محدد ويتبنى مصادرة الاشكال الثقافية الاخرى، ويمارس ضغطا دينيا وقوميا وطائفيا على الاخرين، كما كان يحدث في الماضي .اذن تحرير الثقافة ودورها مرتبط بتحرير الاشكال الثقافية والخروج على التصور الشمولي للثقافة، والابتعاد عن التعامل مع ثقافات الاخرين بوصفها خطاباً معاكساً للفهم الواحد ، وقد ترتب على مجمل هذه الوقائع عدم الاستفادة من التغيير ما دامت طريقة التفكير اليقينية تسيطر على الوعي العام، وللنظر في اعادة البناء الثقافي لا يمكننا القفز على هذه المشكلات . ما يهمنا مما قدمنا سؤال اساسي هل نعيش ثقافة تغيير بفهم الخروج من مرحلة والدخول الى اخرى ؟ ترتبط الاجابة بمراجعة الطقس الثقافي خلال العام المنصرم الذي كشفت وقائعه عن متغيرات جديدة تنذر بمشكلات مخيفة اخرى، فمفهوم السلطة بمعناه العام ما زال مسيطرا بتمثلاته واشكاله، ويقف عائقا امام تحرر الثقافة من قوى ضاغطة كرست خطابا اعلاميا جديدا ، لنرى ان الماكينة الاعلامية تتقدم على الثقافة من جديد وان كان على نحو اخر، فمؤسسات اعلامية جديدة تحاول تحجيم دور الفعل الثقافي ، واحيانا تمارس الغاء ، امتد الى مؤسساتنا التربوية، ليواجه المثقف من جديد ضغطا يعيق دوره التنويري في بناء حراك ثقافي يسمح بتحرير العقل والضمير .

ان السياسة الثقافية لما يقارب العامين بالكامل تتحرك من دون خطة يومية ولا سنوية ولا غيرها بل يهم الإدارة الثقافية شيئ واحدا هو بهجة الاجتماعات وتمنيات المجتمعين أن يكون وراءها أو بعدها خير و لم نشعر حتى الآن أو نتحسس بوجود برنامج غني الحركة والجرأة قابل لمواكبة المتغيرات الثقافية المستمرة بما يساعد على أن يكون لها تأثير فاعل حتى ولو بعد زمن طويل .

ان استمرار الوضع الحالي على ما هو عليه الآن يعيق حصول نهضة ثقافية حقيقية ،وستبقى قيمة الثقافة المتوقعة حسب ما تعمل عليه وزارة الثقافة مثلا قائمة على انعقاد مهرجانات او مؤتمرات تدين بالفكرة وإلى الأبد لطريقة تفكير أوجدت جيلا ثقافيا خلف لنا كل هذا الانشاء التعيس والقاموس الضيق الفج، وهذه التفاهات الشعرية من دون الالتفات إلى روح الثقافة الشاملة التي تشترك بها المدرسة والجامعة والمؤسسة الادبية لبناء نسق حيوي ينسجم ورمزية الفكر العراقي الذي ترك لنا هذ الرأسمال الرمزي الذي ورط الثقافة العراقية باسطورة تتعالى على الواقع دائما لصالح الحكاية ، او الخرافة .

ويلاحظ المتتبع ان هناك عشرات التجمعات والمنتديات وعدداً من الصحف والمجلات الادبية لا هم لها سوى الشعر ، الشعر وحسب، وكأن هذه الثقافة قدر لها ان تكون شعرية صرفة، وتحليل الظاهرة مرتبط بمنبرية مقيتة تسيطر على الوعي الثقافي ، وتصوغ مفهوم الثقافة بوصفها ادبا وشعرا وحسب، في حين ان الواقع ينزف دما يواجهه الشعراء بقصائد متباكية قاموسها ضيق، ورؤيتها مسطحة ، وانشاؤها تعبوي سيء الصيت .تفتقد لرؤية تكشف عن فهم وجودها ، حتى يتخيل القارئ انه لن تقوم ثقافة عراقية الا بموت هذا التصور اللغوي للحياة والفكر .

فكل المشاريع الثقافية يتوجب ان تتركز حول معالجات عملية يمكن لمؤسسات الثقافة العراقية حكومية وغير حكومية أن تطورها وتملأ بها شقوق البنية الثقافية . لماذا نتوقف عند تقديم الآراء والمقترحات وحسب ! لماذا نجد انفسنا في نقطة الصفر كل مرة فيتسرب الجهد والوقت في ثنايا الروتين والمركزية اللذان دمرا الثقافة العراقية وهما لن يختفيا بمزيد من المركزية والبيروقراطية التي عادت الى حياتنا من جديد. ولدينا تجارب لمؤسسات ثقافية مستقلة شكلت ثقلا حقيقيا في زمن قياسي في الحياة الثقافية العراقية الراهنة ، وتركت خطواتها الاولى اثارها على الواقع الثقافي والادبي في العراق، لماذا لا تلجا الدولة لمعاينة هذه النماذج الحيوية من المؤسسات الثقافية المستقلة وتتبنى خططها، وتصوراتها وهي بصدد اعادة الحياة لحياة ثقافية بقيت راكدة زمنا ليس بقصير.

ان المثقف المعني حقا بالثقافة ومشكلاتها لم يزل مهمشا ، لأنه وكما يبدو لم يندرج في تجمع او حزب، فالأسر الحزبية المالكة هذه الايام لا تستعين بأحد من غير اسرتها ، حتى انها لم تشرك عدد كبير من هؤلاء المستقلين وطيلة المدة المنصرمة بالتداول في أي شأن ثقافي ويبدو ان قدر الثقافة العراقية هو أن تكون سجينة المكاتب والمهرجانات والمؤتمرات التي ثبت موتها، وانها لن تقدر على تقديم حلول لمشكلات الثقافة عموما.

رهان الثقافة العراقية

لقد بدا والى حد كبير ان الثقافة العراقية محكومة بهذا التنوع والتعدد في اشكالها التي تجاهد على الخروج من الصيغة الواحدية التي سجنت بها زمنا طويلا، وغدا من الواضح ان الثقافة العراقية لن تتمكن من استعادة دورها وفاعليتها في احضان المؤسسة الحكومية، وان لم تكن هذه المؤسسة هي المسؤولة الوحيدة عن حالة التراجع والكسل والفوضى .فالايمان بفكرة ان الثقافة لن تزدهر وتتنامى ما لم تتحرر من كل السلطات التي تجهد لفرض قيمها لاعتباراتها السياسية والاجتماعية،من هنا فان المبادرات لعقد المؤتمرات الثقافية وزارية كانت او مستقلة يجب أن لا تبقى مجرد افكار ومقترحات، وانما يجب ان تتحول الى سلوك ثقافي وأحداث واسهام ثقافيين في اطار عملية قادرة بقوة المثقفين على صياغة تصورات وستراتيجيات لها القدرة على اقصاء قرارات الآلة البيروقراطية المسيطرة على الحياة في بلادنا وهي تجتاز ظرفا دقيقا صعبا تحتاج فيه إلى ضبط حركتها في وقت محسوب كي ينتقل السلوك الحضاري من قاعات المؤتمرات والمكاتب إلى الأرض الثقافية اليومية .

والتنبه الى التواصل الثقافي بما يسمح باقامة علاقات ثقافية وإنسانية لجميع مكونات الشعب العراقي من العرب والأكراد والتركمان والصابئة واليزيدية وان تقبل الذات الثقافية ككائن ثقافي متوحد بعيدا عن الأجناس الحزبية والكتل السياسية وان يتم قبول المستقل على أساس انه كائن مغاير ولكنه شريك في الوقت نفسه . فضلا عن ان تخطيطنا يفترض ان يكون قادرا على خلق التكامل والتشارك بين الثقافات التعددية وان تكون ستراتيجياتنا ومعطياتها متلائمة مع العصر . بهذا الشكل ربما يمكننا ان نجعل من ثقافة الحرية مثالا لنموذج ثقافي عراقي في دولة ديمقراطية .

اليونسكو لجان ووفود ووظائف فوق العادة

لم نكن نعرف أن المؤسسة الثقافية الحكومية قد قامت بتشكيل لجان من مجموعة من المثقفين والأدباء وفي مجمل الحقول لاعداد تقارير سوف ترفع لليونسكو. لكن الرسائل التي وصلت الى بعض الصحف من بعض أدباء المحافظات الذي شكوا اهمال المؤسسة الحكومية لدورهم. وتجاهلها لهذا العدد الكبير بدعوى عدم استقرار الوضع الأمني. جعلنا نتنبه لهذا الموضوع ايضا ومن لقاءات مطولة مع مجموعة من الأدباء الشباب تبين أن وزارة الثقافة تجاهلت الكتاب الشباب أيضاً .وهذا امر ليس بجديد على هؤلاء الشباب ولا نعرف كيف يمكن انشاء لجان من الممكن ان تسهم في فعل ثقافي واقعي لو تجاهلنا أدباء المحافظات والمثقفين الشباب . ما الآلية التي اعتمدها الوزارة في ترشيح اعضاء هذه اللجان لو أبعدنا عنها أدباء المحافظات أو الشباب منها؟. لكننا نتمنى لو لم ترتجل الوزارة هذا الفعل شأنه شأن القرارات السابقة. بسبب أنها لا تعتمد المعطيات التي يقوم عليها الواقع الثقافي العراقي . بدلالة الوفد الذي ارسلته إلى اليونسكو. فقد ذهب وفد كبير جداً من شيوخ الثقافة وعاد دون أن يخبرنا أحد عما قام به هذا الوفد من خطوات او انشطة من الممكن أن تسهم في دفع العمل الثقافي الى الامام . فضلاً عن تجاهل أسماء فاعلة من الممكن ان تسهم في عمل كهذا وتجاهلت حتى رموزنا من الذين في الداخل والخارج ، ما نحاول ان نؤشره هو انه على المؤسسات الحكومية الثقافية والمؤسسات الثقافية الاخرى المستقلة وغيرها الانفتاح على كل الاصوات الثقافية و على أسماء عربية ناصرت القضية العراقية وأزماتها أيام النظام المباد . ولا نعرف ما هي الضرورة من تعيين شاعر عراقي ممثلا لوزير أو وزارة في اليونسكو. الشاعر الذي قيل عنه أنه عاش في العراق ربما لأيام ، فكيف له ان يعرف ما يحدث في الداخل. ليتحرك مع الجهات الدولية لتأمين بعض الظروف أو الحاجات الأخرى. إن استحداث مثل هذه الوظائف وبراتب كبير أمر يدعونا لفتح حوار جدي وشفاف في هذا الصدد في الوقت الذي تشكو فيه مؤسساتنا الثقافية الحكومية والاهلية شبه افلاس كما يعلن. لذا نأمل من دوائرنا الثقافية : منها الوزارة واتحاد الادباء ان لا تلجأ الى أساليب يعرفها مجمل الادباء في العراق حول من يتسلم المسؤولية الادارية ، وان يعرضوا خططهم وبرامجهم للنقاش للتوصل إلى قرار يشارك فيه معظم المثقفين لتعلق الأمر بمستقبل الثقافة العراقية تحديداً. ففي الوقت الذي يتقاضى فيه أدباء كبار من الذين عانوا الأمرين راتباً مقداره مائة دولار شهرياً تستحدث مؤسسة ثقافية حكومية وظيفة في اليونسكو بخمسة الآف دولار شهرياً. الا يحق للأدباء أن يعرفوا حقيقة هذه الوظيفة وأهميتها حتى تجتهد هذه الدائرة بعمل كهذا يكلفها الكثير من الأموال؟!. إنها مجرد أسئلة نضعها للنقاش .

وجوه مكررة في الايفادات

يجب الا نخشى القول او نتردد في ظاهرة مقيتة في السلوك الثقافي العراقي وهي قضية الاسماء التي تصر مؤسساتنا الثقافية واتحاد الادباء وبقية التجمعات على تكرار ارسالها في المؤتمرات والزيارات الثقافية. وبعض هذه الوجوه لا تتوفر فيها قدرات ومنجزات يؤهلها لتمثيل الثقافة العراقية. فضلا عن قيمتها الفكرية والثقافية المتواضعة . والا كيف نفسر حرمان ادباء المحافظات من كل هذه الايفادات. وعدم اشراكهم في اية فعالية . وكأنه كتب على هؤلاء ان يعانوا القمع سابقا وحاليا. لذا نتضامن مع فكرة استقدام ادباء المحافظات والادباء الشباب الى صميم الفعل الثقافي

المؤتمرات الثقافية والامنيات الممكنة

الديمقراطية التي ضاعت في فوضى الارهاب والخوف امتدت الى حياتنا الثقافية وابعدتنا عن وضع اية استراتيجية ممكنة للمستقبل الثقافي، فالعقلية الماضية مازالت سائدة في العمل والتقييم والسلوك الثقافي، فمديرو مؤسسات لا علاقة لهم بطبيعة نشاط المؤسسة، وموفدون لا علاقة لهم بما يوفدوا من أجله، ومجلات فقيرة مضمونيا وشكلا تصدر كما كانت،ومؤسساتنا واتحادنا لم يتركا احدا في الداخل والخارج الا وسالوه ان يرفدها بمقترحاته، وهناك عشرات المقترحات التي قدمت تصورا لكيفية النهوض بالواقع الثقافي طبقا للتجربة العراقية العريقة التي اخذت هذه المقترحات بنظر الاعتبار تجارب بلدان مرت بتغيرات مماثلة لما حصل في العراق.

لقد انقضت المدة الماضية والحال هو هو، والبيروقراطية هي هي، والافلاس هو هو ، والسبب هو العقلية التي اوصلت الوزارة الى هذه الحال، مكتفية بقضاء الوقت بنشاطات متواضعة ومجلات بائسة يصدرها افراد من المثقفين هذه الايام، والحال هذه وطبقا لواقع وضع الوزارة واستمرار هذه الفوضى فإن الامل بقيام ثقافة حقيقية معدوم وسنعود كما كنا الى مهرجان فقير، كل عام وكفى الله المثقفين شر النهضات الثقافية. ان ابعاد الوزارة لاسماء مهمة في الثقافة العراقية عملية قيصرية يقوم بها القائمون على القرار في الوزارة لجسد الثقافة العراقية، وتركهم هؤلاء سيقدم صورة حزبية عن الوزارة، فهناك اطراف واحزاب وتيارات عريقة في البلد لها رموزها مثقفوها وكتابها ، فهل ستقاطعهم الوزارة وتمنع ما ينتجون؟ الامر الذي يعزلهم عن الشاعر العراقي المتنور الذي يحمل تصورا ثقافيا رصينا عن مرجعية الوزارة السياسية. فهل ستستمر الوزارة بسلوكها وتخسر كل هؤلاء.

الماكنة الاعلامية تتقدم على الثقافة من جديد

واخيرا اعلنت الوزارة عن مؤتمر للمثقفين . لمناقشة ما يمكن ان تفعله، لماذا كل هذا الجهد فالجميع يعرف المشكلات وهي مشكلات معروفة لكل المثقفين، والجميع يطالب بخطوات عملية لا ورش لا طائل من ورائها، والغريب ان الوزارة دعت الى هذا المؤتمر وشكلت لجنة تحضيرية. فالقاموس ذات القاموس القديم والالية ذات الالية ، فمفردات مثل : الورش ، واللجنة التحضيرية كلمات ما عادت اذان المثقفين تحتمل سماعها، فالفراغ الثقافي واضح والتصدعات في الواقع الثقافي بادية للعيان. فلماذا لا تقدم الحلول وننتهي من قصة المؤتمرات هذه، لماذا دائما لا بد من مؤتمر لاعادة قول المشكلات. لقد مللنا هذا التراث البيروقراطي، ويكفي كل هذه التعقيدات.

نحن نعرف ان ملاك الوزارة جاء طبقا لظروف حرجة خضعت للمحاصصة والمراضاة ، لكن لم لا تعمل الوزارة طبقا للآلية التي أوصلتها الى ما هي عليه الان وتتجاوز التعيين العائلي الحزبي، وكأن كل هؤلاء الادباء والمثقفين المتوزعين في المنتديات والمقاهي الادبية لا شرعية لهم ولا يمكن ان يسهموا في بناء ثقافتهم، ولا يحصلوا على عمل ان لم ينتموا لهذه العائلة الحزبية؟! وحتى المساكين من اخوتنا الذين فصلوا من وظائفهم لاسباب سياسية وتحملوا قمع النظام السابق يستجدون حقهم. بينما تحتفي وزارات اخرى بموظفيها المفصولين لهذه الاسباب. بل ويقدمونهم على غيرهم لما عانوه وتحملوه. لكن قدر الثقافة العراقية ان يجثم على صدرها الروتين والاهمال والشللية. وكم من مثقفينا من الذين يعيشون في المنافي، يستحقون ان يسهموا بدور او بآخر، اهملتهم الوزارة، وزارني بعض ممن عاد واتصل بالوزارة وقرر العودة يائسا.

على الوزارة ان تحول مؤتمرها هذا الى سلوك عملي بدلا من الانشغال في جدل لا طائل من ورائه عليها ان تستغل دعوتها وتفكر بمسؤولية وتهتم بالحادث الثقافي، فهناك عمل مقدس يمكن ان تقوم به لو شاءت ، ان تردم الفجوة بينها وبين الادباء والمثقفين من المركز والمحافظات، فأدباء المحافظات ساخطون مقهورون، فقد استبشروا خيرا لزوال الوزارة السابقة. والاخذ بنظر الاعتبار التعدد السياسي والثقافي للبلد، وعدم اللجوء الى اقصاء ثقافات مكونات البلد من اكراد وتركمان وصابئة وشيعة وسنة، والتعاطي مع الهويات الثقافية لكل هؤلاء بفهم، انها وزارة لكل تلك التشكيلات الثقافية. وليست وزارة مضطربة يعوزها الجرأة والنظر الدقيق والمال الكافي والتخطيط الجيد المدروس، فالمسؤولية مسؤولية ثقافية في الاساس وليست سياسية وحسب، وفي اعتقادي ان المسؤولية الثقافية والالتزام بها اكثر تأثير وتقديرا وفائدة لبناء ثقافة عراقية جديدة .